﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

حكمُ اللهِ على المشركين وفصلُ الخلافِ بين المؤمنين والكافرين

لمّا ذكر في الآية السّابقة دعاءَ نبيّه ﷺ بالحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، وكان أعظمَ الاختلاف اختلافُ أهلِ الإيمان مع المشركين الذين استبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمأزّوا عند ذكر الله، ذكر هنا في هذه الآية ما يدلّ على جوابه لدعاء رسوله، ببيان حكمِه على المشركين الظّالمين الذين ادّعوا أنّ لهم الحسنى، بمجازاتهم بما يستحقّون، بما يحسمُ الاختلافَ الحاصل بين العباد مؤمنِهم وكافرِهم. فذكر في وعيدهم أشياءَ أولُّها: أنّ هؤلاء الكفّار لو ملكوا كلَّ ما في الأرض من الأموال وملكوا مثلَه معه لجعلوا الكلّ فديةً لأنفسهم من ذلك العذاب الشّديد. وثانيها: ظهورُ أنواعٍ منَ العقاب لهم لم تكن في حسابهم. وثالثُها: ظهورُ آثار تلك السّيئات التي اكتسبوها بتنوّع العقاب ثم يحيقُ بِهِمْ هذا العقابُ من كلّ الجوانب جزاءَ ما كانوا يستهزئون به، فنبّه تعالى بهذه الوجوه على عظمِ عقابهم[1].

ومنَ المناسبات أنّه "لمّا نفى صلاحيةَ الوكالة على النّاس في الهدى والضّلال لغيره ودلَّ على ذلك بمُلكِه ومِلكِه وأخبر بتعمّدِهم الباطلَ، أنتج ذلك وجوبَ اللّجوء إليه والإعراضِ عمّا سواه وقصرِ العزم عليه فقال: مُعْلِمًا بذلك ومُعَلِّمًا لما يُقال عند مخالفة الدّاعي باتّباع الهوى: ﴿قُلِ﴾"[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 523 - 524.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٱفْتَدَوْاْ﴾: (فدي) أصل يدل على جعل شيءٍ مكانَ شيءٍ حِمًى لَهُ، يُقالُ: فَدَيتُهُ أفديهِ، كأنَّكَ تَحميهِ بنَفسِكَ أو بشيءٍ يُعَوِّضُ عنهُ[1]، والفِدَى: جَمعُ فِديَةٍ. والفِداءُ: ما تَفدي به وتُفادي. والفِعلُ: الافتِداءُ[2]. وافتَدى: إذا بَذَلَ ذلك عن نَفسِه[3]. وتَفادَى القومُ: استَتَرَ بعضُهم ببعض مَخافةً، وتَفَدَّيتُه وفَدَّيتُه واحدٌ[4]. والمقصودُ بـ ﴿لَٱفْتَدَوْاْ﴾ في الآية: إعطاءُ شيءٍ بدلًا عَن حَقٍّ للمُعطَى.

2) ﴿وَبَدَا﴾: (بدو) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ ظهورًا بيِّنًا[5]، لكونِه مطلعَ ظهور الشّيء وبدايتَه، ولذا لا يحتاجُ إلى مجهودٍ في استظهاره واكتشافِه؛ لأنّ أوائلَ الأشياء واضحةُ الظّهور؛، و"بدوتُ أبدو إذا ظَهَرْتُ. وبدا لي الشّيءُ بَدْواً وبُدوّاً إذا ظهر لك. وكلّ شيء ظهر لك فقد بدا لك"[6]. ومِنْ ذلكَ: البَدْوُ، وهو خلافُ الحَضَرِ، ويقالُ للمقيم بالباديةِ: بادٍ[7]، وسُمّيَتِ الباديةُ بذلكَ؛ لأنَّها يظهرُ كلُّ ما فيها؛ لخُلوِّها مِنْ ساترٍ[8]. والمرادُ بالبُدوِّ هنا: الظُّهورُ[9].

3) ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾: (حسب) أصل يدل على العدّ والكفاية. يقال: حَسَبْتُ الشيءَ أَحْسُبُهُ حَسْبًا وحُسْبانًا، أي: عددتّه. ومن قياس الباب: (الحِسْبان) بمعنى: (الظّنّ)؛ لأنّه إذا قال: (حسِبْتُه كذا، فكأنّه قال: هو في الذي أعُدُّه منَ الأمور الكائنة[10]. فآل إلى معنى العدّ. ويقال: حسْبُك من كذا، أي: يكفيك منه. والمعنيان (العدّ والكفاية) متلازمان؛ لأنّ في العدّ كفايةً عنَ الخطأ والوهْم في التّقدير. ومن ذلك اسمُ اللّه: الحسيب. الكافي عبدَه بتمام التّقدير وحسْن التّدبير. ومنه الحَسَب: مفاخرُ الإنسان في آبائه الذين يَعُدُّهم ويكتفي بهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فدي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فدى).
(3) الرّاغب، المفردات: (فدى).
(4) الخليل، العين: (فدي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو)، والراغب، المفردات: (بدا).
(6) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (بدو).
(7) الراغب، المفردات: (بدو).
(8) السَّمين، عُمْدَة الحُفَّاظ: (بدو).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 302، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 94.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).

عمّا سواهم، وله في عدّهم وذِكْرِهم مَنَعَةٌ وكفاية. والاحتسابُ هنا في الآية: "مبالغةٌ في الحساب بمعنى الظّنّ، مثل: اقترب بمعنى قرُب. والمعنى: ما لم يكونوا يظنّونه"[1]. فمعنى ﴿مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾: "ظنّوا أنّ أعمالهم في شِركِهم تنفعُهم، فلم تنفع"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مصيرُ الظّالمين يومَ القيامة وعجزُهم عنِ الافتداء منَ العذاب

تتحدّث الآية الكريمة عن حال الظالمين يومَ القيامة وما سيواجهونه من أهوال وشدّةٍ، "وأنّهم على - الفرض والتّقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعًا، من ذهبها وفضّتِها ولؤلؤها وحيواناتِها وأشجارها وزروعِها وجميعِ أوانيها وأثاثِها، ومثلُه معه، ثم بذلوه يومَ القيامة ليفتدوا به منَ العذاب ويَنجوا منه، ما قُبِل منهم، ولا أغنَى عنهم من عذاب الله شيئًا[3]. وظهر لهم يومئذٍ من أمر الله وعذابِه ما لم يكونوا يحتسبون في الدّنيا أنّه نازِلٌ بهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو:

نزولُ حُكمِ الله بالظّالمين على غايةٍ منَ الشدّةِ والقهر

جملةُ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ استئنافيّةٌ مسوقةٌ "لبيان آثار الحُكم الذي استدعاه النّبيّ ﷺ، وغايةِ شدّتِه وفظاعتِه، أي: لو أنّ لهم جميعَ ما في الدّنيا منَ الأموال والذّخائر"[5]. ويصحُّ أن تكون الجملةُ معطوفةً على مُقدَّر، مفهومٍ من قوله: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾، والتّقديرُ: فأنا أحكم بينهم وأعذّبُهم، ولو علموا ذلك ما فعلوا ما فعلوا، والأوّلُ أظهرُ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 332.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 726.
(4) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص: 463.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 258.
(6) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 543.

معنَى (لو):

(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، شرطيّةٌ امتناعيّةٌ - امتناعَ الجواب؛ لامتناعِ الشّرط[1]، فالجوابُ: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ ممتنعٌ؛ لامتناع الشّرط: وهو أن يكون لهم ما في الأرض جميعًا.

تصويرُ استحالةِ الـفـداء لمـن لا يملكُ

فائدةُ التّعبير بالجملةِ الشّرطيّةِ:

التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بليغٌ في تقرير الوعيد، وإظهارِ شدّة العذاب يومَ القيامة، فالافتراضُ الحاصل في جملة الشّرط وجوابِه يكشفُ عن هَوْلِ الموقفِ وشدّته. فالشّرطُ يقرّر استحالةَ النّجاة بالعوض أوِ الفداء مهما بلغ حجمُه، ممّا يزيد من شعور الظّالمين بالنّدم واليأس يومَ القيامة، فالجملةُ الشرطيّة أظهرتِ الوعيدَ، وأظهرت عجزَ الظّالمين وانقطاعَ حيلتهم. وفي تعليق الجواب على الشّرط بالامتناع في الآية - ينبّهُ السّامعَ إلى بشاعة الظّلم المذكور في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، والذي وصل بهم إلى هذا المستوى منَ الحرمان وعدمِ القَبول؛ فأسلوب الشّرط يُحفّزُ الأذهان إلى النّظر في العواقب، ومفارقةِ الظّلم قبل فواتِ الأوان.

استحالةُ النّجاة بـالـعـوض أوِ الفداء يزيدُ من شعور الظّالمين بالنّدم واليأس يومَ القيامة

نكتةُ تقديمِ خبر ﴿أَنَّ﴾ على اسمها:

تقديمُ الخبر في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، بدلًا من قول: (ولو أنّ ما في الأرض للذين ظلموا)؛ للاختصاص والاهتمام بسببِ الوعيد، وهو الظّلمُ، فيُسْتَنْبَه القارئُ أوِ السّامعُ بالسّبب الجوهريِّ - أوّلا - الذي انبنى عليه الوعيدُ، فيستسيغُ ويتوقّعُ ما يجيء بعد ذلك من حرمانِ الفداء وامتناعِ الخلاص؛ فقدّم الخبرَ مراعاةً لأولويّة الاهتمام.

تسليطُ الضّوء عـلـى مـحـوريّـة الـظّـلـم في اسـتـجـلاب العقوبة

معنى اللّام في: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هي لامُ الملك أوِ الاختصاص،

لامُ الملك أوِ الاختصاص

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 89.

وتفيد أنّ هذا الملكَ الافتراضيَّ ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ قد أصبح مختصًّا بالظّالمين أو في حوزتِهم لو تحقّق هذا الافتراضُ.

غرضُ التّعبير بالموصول وصلتِه:

في تحديد صفةِ الظّلم بذواتِهم تقبيحٌ لهم

التّعبيرُ بالموصول وصلتِه في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يفيدُ العِليّةَ والرّبطَ بين الظّلم والعقوبة، فالظّلمُ الذي ارتكبوه هو السّببُ في استحقاقهم الوعيدَ المذكورَ. ولو قيل: (ولو أنّ للظالمين)، لأصبح التّعبيرُ عامًّا وشاملًا لكلّ مَن يتّصفُ بصفة الظّلم دون إفادة العِلّيّة. كما أنّ التّعبير بالموصول أفادَ إجراءَ مضمون الصّلة (صفة الظّلم) على ذواتهم، وفي ذلك تقبيحٌ لهم، مع تخصيصهم بالتّعيين والتّحديد، فهو يشيرُ إلى فئةٍ معيّنة اتّصفتْ بالظّلم، فاستحضَرَها بأشخاصِها والظّلمُ مُنطبِعٌ فيهم، بادٍ على ذواتهم، كأنّما يُشْهِدُ على ظلمِهم وهم متلبِّسون به.

معنى ﴿مَا﴾:

شموليّةُ الملكيّةِ الافتراضيّةِ في السّياق العقابيّ

﴿مَا﴾ في قوله سبحانه: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ اسمٌ موصولٌ، كأنّه قيل: (ولو أنّ للذين ظلموا ملكَ الذي في الأرض جميعًا)، فأفادت ﴿مَا﴾ هنا العمومَ والشّمولَ لكلّ ما تحويه الأرضُ من أملاكٍ وأموالٍ وثرواتٍ وخيراتٍ من غير استثناء[1]، كأنّه قيل: (لو أنّ لهم كلّ الذي في الأرض). وكأنّ ﴿مَا﴾ هنا تفسحُ المجالَ للتّفكّر في استحالةِ امتلاكِ الإنسان كلّ ما في الأرض، ممّا يزيد في حسرة الظّالم، ويُضخِّمُ في حجم تلك الملكيّةِ الافتراضيّةِ، ويعظِّمُها، فيقوّي الافتراضَ؛ لغرض تهويلِ عجْزِهم والمبالغةِ في هوانِهم وانقطاعِ حيَلِهم. كما أنّ مضمونَ الصّلة: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ – على تقدير: (لهم ما استقرّ في الأرض) – أفاد في تعيين محلِّ الملكيّة، وهو مستودعاتُ الأرض كلّها مجتمِعةً بكنوزها ومواردِها وموجوداتِها.

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 131.

سرُّ التّوكيد بالحال ﴿جَمِيعًا﴾:

أكّد تعيين محلِّ الملكيّة في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ - بما تحويه الأرض من مواردَ وثرواتٍ - بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ بيانًا لعظمة الأمر[1]. لذلك قوّى به معنى العموم والشّمول المتحصّل من ﴿مَا﴾ الموصولة.

نكتةُ التّعبير بالمثليّة: ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾:

إبـــرازُ ضـآلـةِ الفداء أمام هولِ العقاب

أصلُ المثل: المثيلُ، والمشابهُ تمامَ المشابهة، وشاع إطلاقُه على الشّيء المشابِه المكافئ[2]. وعَطْفُ قوله: ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مبالغةٌ في تأكيدِ استحالةِ الفداء، كأنّه قيل: حتّى لو امتلك الظّالمون ليس فقط كلَّ ما في الأرض، بل ضعفَ ذلك، فلن يُغنيَهم شيئًا. وفيه منَ الإدهاش ما يدفع الإنسانَ للتّفكير في مدى هولِ العذاب، بحيث لا يُغني عنه أعظمُ ما يمكن تصوّرُه. وفي تعبير المثليّة كنايةٌ عن حقارة الدّنيا بأسرها بحيث لم تنفع شيئًا في دفع العذاب، وكنايةٌ عن قيام حقيقةِ الإنسان على العجز والافتقار التّامّ؛ إذ إنّه لو ملك أقطارَها وأضعافَ ذلك، فسيظلُّ عاجزًا أمام مجابهة العذابِ ودفعِه.

فائدةُ تقييدِ المثليّة بالمعيّة[3]:

تضخيمُ الملكيّةِ المـفـتـرضـةِ وشـمـولُـهـا، وإظـهـارُ عبثيّةِ الفداء

الضّميرُ في قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ عائدٌ على: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لهم مِلْك ما في الأرض ومِثْل هذا الملك كائنًا معه. وكلمة: ﴿مَعَهُۥ﴾ تناظر كلمةَ ﴿جَمِيعًا﴾ فكلاهما يفيدُ تضخيمَ الملكيّةِ المفترَضَة، وكلاهما أفاد معنى الجمعِ والاقتران، أي: لهم كلُّ ما في الأرض مُجتَمِعًا، احترازًا أن يحصل لهم على جهة التّقطيع أوِ التّوزيع أو دفعاتٍ مرّةً تلو مرّة. وكذلك لو ملكوا مثلَ ذلك، وكان مُقترنًا به، مُنْضَمًّا إليه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 337.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.

احترازًا من أن يحصلَ لهم المِثْل مفترِقًا عن مِلك ما في الأرض جميعًا، أو مُعاقِبًا وتاليًا له، فجاء بالمعيّة؛ ليدلّ على اصطحابِ وانضمامِ هذين المِلْكَين في وقت واحد: ملكُ ما في الأرض، وملكٌ مثلُه؛ ليقع المِلك المفترضُ على أقصى حدٍّ له في الاتّساع، فإذا لم ينجع ولم ينفع - على اتّساعه - في دفع العذابِ، عاد ذلك الملك ضئيلا غيرَ مؤثِّر، وثبتَ أنّ العذاب أوسعُ وأعظمُ.

معنَى اللّام في ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾:

التّهكمُ بالظّالمين تأكيدٌ لاستحالة النّجاة

اللّام في قوله: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ واقعةٌ في جواب الشّرط، وهي لتوكيد وقوعِ العاقبةِ والنّتيجة التي هي مضمونُ الجواب حالَ تحقّقِ الشّرط، وفائدةُ التّوكيد هنا: التّسجيلُ على الكفرة والتّهكّم بهم في ادّعائهم أنّهم لا يذلّون لشيءٍ ولا يوهِن قواهم شيءٌ[1].

نكتةُ حذفِ معمولِ الفداء في: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾:

حذفُ معمولِ الافتداء في قوله: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾؛ إيجازًا؛ لظهوره بدلالة ما قبْله عليه، والتّقدير: (لافتدوا به أنفسهم)[2].

دلالةُ (افتعل) في: (افتدى):

لن ينفعَ سعيُ الظّالمين اليائسُ للخلاص وإنِ اجتهدوا

لم يُقل في السّياق الكريم: (لَفَدَوا به)، بل عُبّر بصيغةِ الافتعال، (افتعل - افتدى)؛ للدّلالة على أنّه لو كان لهم ذلك؛ لاجتهدوا وبالغوا في محاولة الفداء، لانطوائهم على اليأس والجزع، واستبعادِهم أن يُغاثوا أو يُنصَروا. فالتّعبيرُ بتلك الصّيغة فيه تلويحٌ باستحالة الفداء، وإياسِهم منَ النّجاة[3].

معنَى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾، سببيّةٌ، أي: بسبب العذابِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.

السّيئ الذي شاهدوه افتدوا به. ويجوز أن تكون للبدل، أي: بدلًا عن ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾[1]. وهي في ذلك لم تنفصل عن معنى الابتداءِ، أي: أنّ الفداء هنا موجّهٌ للتّحرّر من أصل العذابِ الذي يمثّلُ منشأ المعاناة، فالافتداءُ هو دفْعٌ لبداية العذاب أن تصيبَهم، كأنّه قال: يحاولون الفداءَ ليكون العذابُ غيرَ واقع عليهم ابتداءً.

تجنّبُ العذاب تمامًا من بدايته ومنشئِه

نكتةُ إضافةِ السّوء إلى العذاب:

إضافةُ السّوء إلى (العذاب) في قوله: ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لبيان شدّةِ العذاب، وأنّه عذابٌ بالِغُ القسوةِ والإيلام بسبب سوْءِه. ووجهُ المبالغة: أنّ كلمة (العذاب) تحملُ معنى العقوبة، لكنّ إضافةَ الـ﴿سُوٓءِ﴾ تُعطي تخصيصًا نوعيًّا لهذا العذاب، بأنّه نوعٌ منَ العذاب سيّئٌ للغاية، بما اشتمل عليه من أذىً نفسيٍّ وإيلامٍ جسديٍّ بالِغ. وهذه الإضافةُ تزيد الرّهبةَ في النّفوس؛ لأنّ كلمة الـ﴿سُوٓءِ﴾ تحملُ معانيَ القُبح والشّرّ، وإضافتُها للعذاب تُضخّمُ الشّعورَ بالرّعب والرّهبة من هذا العقاب، وتجعلُ السّامع يتخيّل عذابًا يفوق الوصفَ في قسوته وقبحه. فالتّعبيرُ بـ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾ يجعلُ إدراكَ فداحةِ العذاب أكثرَ وضوحًا؛ لأنّ لفظَ السّوء يكثرُ استعمالُه في النِّقَم والمصائبِ المُزعجةِ، فيُقابلُه في الذّهن فضائلُ النّعم وزوائدُ الخيرات، فتتجلّى حقيقةُ العذاب وتتمايزُ بإدراك ذلك الضّدّ.

المبالغةُ في وصف العذاب تصويرٌ لهولِهِ وعمْقِ ألَمِهِ

وفي الإضافة أيضًا إثارةٌ لمشاعر الإذلالِ والمهانةِ في الذّهن. ممّا يُظهرُ أنّ العذاب يومَ القيامة يجمعُ بين الآلام الجسديّة والنّفسيّة.

معنى(ال) في: ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:

(ال) في العذاب في قوله: ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ عهديّةٌ تُشير إلى عذابٍ مُعيَّنٍ ومعروفٍ، وهو عذابُ يومِ القيامة، بقرينة قولِه بعده: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

تحديدُ عذابِ الآخرة وشدّتِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.

فائدةُ الظّرفيّة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

ارتباطُ العذابِ بهولِ يومِ الحساب

التّقييدُ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ يُحدّدُ أنّ العذابَ المذكور هو عذابُ الآخرة، ممّا يُزيل أيَّ لبس عن نوعِ العذاب المقصود. والجمعُ بين ذِكرِ العذاب وذِكرِ يوم القيامة يُضخّمُ من هول العقابِ في أذهان السّامعين[1]. وفي التّقيّد بيوم القيامة إلماحٌ إلى وقوع ذلك العذاب بالعدل والاستحقاق، فكونُه يومَ القيامة، يلزم عنه أنّه لا ظلمَ فيه، ولا زيادةَ فيه على مقدار الاستحقاقِ والعدلِ؛ لأنّه عذابُ حسابٍ وجزاء.

ثمّ إنّ عذابه ليس كعذاب الدّنيا، بل هو عذابٌ غيبيٌّ لا يقدرُه قدرَه إلّا اللّه سبحانه، ولا يعلمُ مدى هولِه واستمرارِه وبشاعتِه إلّا هو.

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليةِ في مضمون الشّرطيّة:

يومَ الحساب لا ينفعُ الظّالمين مُلكٌ أو فداء

في جملة الشّرط: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، بتشبيه حالِهم بحال من يحاولُ التّخلّص والفداءَ ممّا هو فيه بما ذكِرَ منَ الأملاك العظيمة، فلا يتقبّلُ منه، بجامع لزوم البلاء وثبوتِه في كلٍّ، وجملةُ الشّرط جاريةٌ على فرضِ المحال؛ للإقناط والوعيد[2].

معنَى الواو في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم﴾:

الجمعُ بين الافتراض التّهديديّ والتّقريرِ التّحقيقيّ

جملةُ: ﴿وَبَدَا لَهُم﴾ معطوفةٌ على الجملة الشّرطيّة ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، جمْعًا بين الافتراض التّهديديّ، والتّقرير التّحقيقي. أي: لو كان لهم ذلك الافتراضُ ما نفعَهم ولا قُبِل منهم، وسيلْقون بالفعل ما لم يخطرْ لهم ببالٍ من سوء العاقبة وخزي المصير[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.
(2) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 543.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.

ويصحُّ أن تكون الواو حاليّةً؛ لمزامنة ما بعدَها مع ما قبْلها، أي: لو أنّ لهم ذلك وافتدوا به ما قُبِل منهم؛ لأنّ ذلك كائنٌ في الوقت الذي بدا لهم فيه ما لم يحتسبوه[1]. والواو الحاليةُ تفيدُ أيضًا أنّ ما بعدها ثابتٌ ومتحقّقٌ قبلَ حصول ما قبْلها، أي: الذي بدا لهم ممّا لم يكن في حُسبانهم، حاصلٌ ومتحقّقٌ لهم سواء جرى هذا الافتراض أو لم يجْرِ.

معنَى ﴿مِّنَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: ذلك الذي ظهر لهم مصدرُه الله، فذلك الظّهورُ ناشئٌ من جهته ﷻ، فالله هو الذي ابتدأه[2].

فائدةُ شبهِ الجملة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

التّقييدُ بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، مع ظهور أنّ ذلك لا يكونُ إلّا منه سبحانه، فلم يقل: (وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون)، وذلك للتّنصيص على مصدريّة الفعلِ في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم﴾، فما ظهرَ لهم صادرٌ منَ الله مباشرةً، وليس من مصدرٍ آخرَ. وفي ذلك ترهيبٌ للظّالمين، بتعظيم هولِ ما ظهرَ لهم؛ لأنّ ما يصدرُ منَ الله يحملُ طابعَ العظمة والإحاطةِ والعدلِ المُطلقِ، ممّا يجعلُهم في مواجهة مباشرة مع قدرة الله. وفي صدوره منَ الله تعالى إيذانٌ بعدالة الجزاء؛ لأنّ ما ظهرَ لهم منَ الوعيد إذا كان منَ الله، فهو أتمُّ في العدالة، وأنفى للظّلم والبخس.

التّأكيدُ على عدالةِ الجزاء الإلهيّ

في الإشارةُ إلى انتفاء الواسطة بينهم وبين الله تعريضٌ بهم في اتّخاذ الشّفعاء في الدّنيا، وتناسبٌ مع السّياق قبْله في: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾، فيظهرُ لهم منَ الله مباشرةً ما يتحسّرون معه على

في انتفاء الواسطةِ بينهم وبين الله تعالى تعريضٌ بهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.

اتّخاذ وسائطَ بينهم وبينه، فكأنّ الحال: اتّخذتُم مع الله شفعاءَ في الدّنيا، والله يعذّبكم يومَ القيامة وليس بينكم وبينه شفيعٌ ولا نصيرٌ.

علّةُ إيثارِ ﴿مَا﴾ الموصولة:

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ للإيهام والعموم، والإيهامُ؛ لتهويل ما ينالُهم منَ العذاب، فينفتح بذلك الإيهام في الأذهان مصارع الشّدّة والفزع بلا سقفٍ ولا حدّ[1].

فائدةُ التّعبير بالموصول وصلتِه:

مضمونُ الصّلة يقوّي الجزاءَ بعنصرِ المفاجأة

التّعبير بالموصول وصلتِه في: ﴿مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ أفاد عِلّيّةَ ما ظهر لهم، أي: بدا لهم العذابُ؛ بسبب ظنِّهم السّيّئ، وعدمِ حسابهم الأمورَ بحسابها المستقيم. فضلًا عمّا في مضمون الصّلة: ﴿لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ من بيانٍ لإبهام ﴿مَا﴾ بتقرير أنّ ما بدا لهم شيءٌ خارجٌ عن توقّعاتهم وظنونِهم. وتقويةٍ للجزاء بعنصر المفاجأة، فالموصول وصلتُه ﴿مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ يؤذِنُ أنّ سببِ الجزاء الشّديد هو غيابُ توقّعهم لهذا العذاب، برغم أنّه نتيجةٌ حتميّةٌ لأعمالهم، فما بدا لهم ليس إلّا استجابةً عادلةً لِما كانوا عليه، فالله لم يظلمهم، بل كانت ظنونُهم الباطلةُ وأفعالُهم السببَ المباشرَ لعاقبتهم، ممّا يُبرزُ مفهومَ العليّة بوضوح.

فائدةُ فعلِ (الكون):

تأكيدُ استمراريّة الغفلةِ وانطباعِها في النّفوس

عبّر النّظمُ الكريم بقوله: ﴿مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ ولم يقل: (مالم يحتسبوا)؛ لكونه أمكنَ وأتمَّ في الفاصلة، فاستعمالُ فعلِ الكون جعلَ الفعلَ ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ مرفوعًا بثبوت النّون التي تمّتْ بها الفاصلة وازدانَتْ. وفيه فضلًا عن هذا تأكيدٌ لعراقتهم في الغفلة[2]، واستمرارِهم على عدم الاحتساب، فلم يكن عرَضًا مؤقّتًا، بل كان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 527.

عادةً مستمرّةً لم ينفكّوا عنها، ففعلُ الكون أفادَ في توصيف كيفيّةِ الفعل المنفيّ: ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾. على أنّ هذا الاستمرارَ مخصوصٌ بالإطار الزّمني الدّنيويّ، فعدمُ احتسابهم مقتصِرٌ على حياتهم الدّنيا، وأمّا في الآخرة فقد زال الغطاء وانكشف الحجابُ.

الظّالمُ مخطئٌ الحسبةَ في كلّ توقّعٍ وظنّ.

ويُلمحُ فعلُ الكون إلى تحقيق عدمِ الاحتساب وشمولِه، كأنّهم أخطأوا الحِسبةَ في كلّ توقّعٍ وظنّ، فلم يصيبوا في موقفٍ أو رؤيةٍ. فضلًا عن كونه يحقّقُ التّناقضَ والمقابلةَ بين ثباتهم على الغفلة بعدم احتسابهم، وجلاءِ أفعالِ الله فيهم وحالِه سبحانه معهم، فهو يزيد المقابلةَ جلاءً مع قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

دلالةُ صوغِ ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ على زِنة الافتعال:

سـمـةُ أهـلِ الـتّـفـريـطِ والاستـخـفـاف إهمالُ التّقدير الـصّـحـيـح لعواقب الظّلم

لم يقل في السّياق الكريم: (يحسبون)، بل قال: ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ من (احتسب - افتعل)؛ لينفي عنهم بذلَ الجهد في القدر الواجبِ منَ التّخطيط والتّقدير في حسابِ الحقائق وقياسِها، كأنّه قيل: (لم يبذلوا القصدَ المفروضَ في استبيان وحسابِ ما كُلِّفوا به منَ الإيمان وحُذِّروا منَ الضّلال)، أي: لم يكن منهم تحرٍّ ونظرٌ. ولو قال: (يحسبون)؛ لَما أفْهَمَ به عن تقصيرهم الذي أنتج ضلالَهم واستوجب عقابَهم، وهو أنّهم استهزؤوا واستهتروا فلم يُقبِلوا بقصدٍ جادٍّ على ميزان الأمر وحسابِه. فصيغةُ الافتعال: (الاحتساب) مبالغةٌ في الاتّصاف بالفعل وقوّة إيقاعِه والقيامِ به[1]، والصّيغة كنايةٌ عن خلوّ طبائعِهم منَ الجدّيّة والحزمِ وأنّهم كانوا أهلَ تفريطٍ واستخفافٍ لا أهلَ عزيمةٍ وإنصاف. ولا يخفى أنّ (احتسب - افتعل) تدلُّ على التّدرّج الذي هو حالٌ من أحوال المُحتسِب حين يقدّرُ الأمورَ برويّةٍ وتصاعدٍ في الفِكَرِ والنّظر.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 527، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.

نكتةُ حذفِ متعلّق الاحتساب:

الإيجازُ بالحذف يوسّعُ دلالاتِ المفاجأة بالعذاب

حُذفَ متعلّقُ الاحتساب في قوله: ﴿مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾؛ لوضوحه، بما يُغني عنِ التّصريح به، أي: (ما لم يكونوا يحتسبون وقوعَه، أو يحتسبونه)، والعائدُ المحذوفُ مرجعُه إلى الموصول ﴿مَا﴾.

❁ الفروقُ المعجميّةُ:

بدا، وظهرَ، وبرزَ:

صدورُ الشّيء بعد ضدّه يميّزُه، ويحقّقُه

أصلُ البُدوّ الظهورُ البيّنُ[1]. لكونِه مطلعَ ظهور الشّيء وبدايتَه، ولذا لا يحتاجُ إلى مجهودٍ في استظهاره واكتشافِه؛ لأنّ أوائلَ الأشياء واضحةُ الظّهور؛ لانطلاقها بعد خفاءٍ وعدَمٍ، والشّيء حين يصدرُ بعد ضدّه يتميّزُ ويتحقّق؛ وهذا هو السّرُّ في تعريفهم البَداء والبدوّ بالظّهور البيّن؛ لِمُباينتِه وانفصالِه عنِ الخفاء الذي كان يسبقُه، ولأنّه في محلّ البداية، وبدايةُ الشّيء أوضحُ ما يكونُ منه[2]. وحين يقال: (أبديتُ الشّيءَ)، فباعتبارين: **الأوّل:** أنّه أظهره بإظهار مبدئِه وأوّلِه. **الثّاني:** أنّه الكشفُ المبدئيُّ عن هذا الشّيء، فهذه بداية الكشْف عنه.

أمّا (الظّهور) فيدلّ على قوّةٍ وبروز[3]. ولذا كان دالًّا على الوضوح التّامّ والجلاءَ الذي لا لبْس فيه ولا مَشوبَةَ. وأصلُ (برز) يدلّ على ظهور الشّيء في فضاء[4]. فهو ظهورٌ خاصّ، بخروج الشّيء من أثناء ما كان يكتنفُه ويُخفيه بجهدٍ وقوّةٍ ونفاذ[5]. ولفظُ البروز يُشعِر أيضًا باقتران الظّهور الحاصل بعنصرِ الإثارة والإلفات والفجأةِ في البينونةِ والمُثول.

---

(1) الراغب، المفردات: (بدا).
(2) الفيروزابادي، القاموس، المحيط: (بدا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(4) الراغب، المفردات: (برز).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (برز).

وخلاصةُ الفروق: أنّ بدا: بدايةُ الظّهور، ويتصاعدُ بتدريجٍ نحوَ الكمال. ظهر: وضوحٌ تامٌّ مكتمِل. برز: بروزٌ أو خروجٌ مصحوبٌ بلفْتِ الانتباه واستثارة الإدراك. وقولُ الله سبحانه في الآية: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾، يدلّ على أنّ ما ظهر لهم كان أوّلَ مرّةٍ يظهرُ لهم، فقد كان مستورًا عنهم لم يحتسبوه. وأنّ ما ظهر لهم هو مبدأ الأمر فقط، فهو إشعارٌ بأنّ هناك ما سيكتمِلُ ظهورُه بعد ذلك، فقط هم في بَداوةِ الأمر: أي: بدايتِه وأوّلِه. ومن هنا كان لفظُ (بدا) أنسبَ لسياقِ الآية.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»